من قادة الإصلاح في القرن الثالث عشر :

الشيخ شـــامل

زعيم القوقاز وشيخ المجاهدين

١٢١٢ — ١٢٨٧ هـ : ١٧٩٧ — ١٨٧١ م

للأستاذ برهان الدين الداغستاني

الداغستان :

تشغل بلاد الداغستان معظم القسم الشرقي من بلاد القوقاز ، وتمتد على الساحل الغربي لبحر قزوين . ما بين مصب نهر « ترن » شمالا وشبه جزيرة « أبشرون » جنوباً ، وتحدها قمم جبال القوقاز العالية مثل « البرز » و « قازبك » وقمر « دريال » الشهير وبعض بلاد الكرجستان غرباً ، ويجري نهر « ترن » شمالا وجمهورية اذربيجان جنوباً — هذه البلاد هي التي تسمى بالداغستان ، ومعنى الداغستان : بلاد الجبال . وليست هذه المنطقة كلها جبالا كما يتبادر لأول وهلة ، ولكن طبيعة الجبال هي الغالبة فيها .

كانت هذه المنطقة المجاز الذي يجتازه الفاتحون الآسيويون إذا أرادوا الإغارة على أوروبا وبلاد الروسيين ، ويعبره الروسيون والتتار من الشمال إلى الجنوب إذا أرادوا التوغل في آسيا . ولذلك كانت — دائماً — محط أنظار كل الفاتحين ، والغزاة من قديم العصور إلى يوم الناس هذا .

وما كاد المسلمون يبدأون عهد الفتوح أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى وصلت طلائعهم المظفرة إلى هذه البلاد سنة ٢٢ من الهجرة يوم جاء سراقة بن عمرو ، وبكر بن عبدالله ، وعبدالرحمن ابن ربيعة مع إخوانهم المجاهدين . ثم تتابعت الجيوش الإسلامية إلى هذه البلاد ، وتلاحقت وكانت « دربند » — عاصمة الداغستان — ثغراً من ثغور المسلمين التي يرابط فيها في سبيل الله

أطماع الدول الكبيرة فيها :

استقر الحكم العربي الإسلامي في هذه البلاد ، وساوت في طريقها المهيأ لها في هذه الحياة ، حتى إذا زال عنها سلطان العرب السياسي حافظت هي على تراث العرب الروحي : الإسلام وتعاليم الإسلام ، فكانت تستقل بشئون نفسها حيناً ، ويحتلها فاتح جديد أحياناً . حتى كان أواخر القرن العاشر الهجري ، فاحتلها العثمانيون في عهد « مراد الثالث » وهنا بدأت صفحة جديدة من تاريخ هذه البلاد ، فقد نبه احتلال العثمانيين لها أطماع الروسيين من الشمال ، وحفز الإيرانيين من الجنوب ، فصارت مثار أطماع هذه الدول الثلاث ، فكانت تحتلها هذه فترة ، وتلك فترة أخرى . وهكذا إلى سنة ١٢٣٢ هـ — ١٨١٦ م حيث تنازل الإيرانيون عن كل حق لهم بهذه البلاد وحكمها للروسيين ، واحتلها هؤلاء .

أثر هذا الاحتلال الجديد في أهل البلاد :

وكان طبيعياً أن يكون لهذا الفاتح الجديد أثره وتأثيره في البلاد وأهل البلاد ، فأخذ يتودد إلى الأهالي ويستميلهم بكل ما وسعته الحيلة من ترغيب وترهيب ، ويظهر أن سياسة الترغيب هذه لقيت نجاحاً إلى حد ما ، وقد صور الشيخ محمد طاهر القراخي الداغستاني هذه الفترة تصويراً دقيقاً إذ يقول : (١)

« وفي هذه الآونة — حوالي سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٤م) — زاد اتصال الأهالي الداغستانيين بمستعمريهم طمعاً فيما يملكونه من مال وسلطان ، أو يمنحونه من قلادة أو وسام . وكان من أول نتائج هذا الاتصال أن ابتعد المسلمون شيئاً فشيئاً عن أحكام دينهم الذي أشربوا حبه ، وتغلغل في أعماقهم ، ونسوا أوامره ونواهيه وأصبحوا مسلمين بأسمائهم فقط . وكانت البلاد في هذه الفترة خالية من العلماء العاملين ، والمرشدين المخلصين الذين يحسنون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فانتهز هذه الفرصة بعض الجهال المتزيين بزي العلماء ، وعلى الخصوص قضاة وحكام منطقة « الزكستان » وأخذوا يتصلون بالجماهير ليلقوا في نفوسهم أن سياسة الحكومة القيصرية ، واستعمارها لبلادهم — ولعلهم كانوا يعتقدون ذلك ؟ — هو عين العدل والإنصاف !!.

(١) في مقدمة كتاب له عن الشيخ شامل وغزواته .

وكان لعمل هذه الطائفة أثره الكبير في وسط الجماهير من المسلمين ، فازدادت صلاتهم بالمستعمر ، وأخذوا يرسلون شبانهم ليقوموا ببعض الوظائف والأعمال والدواوين الروسية ، ثم تطورت الأمور إلى أبعد من ذلك ، وصاروا يحبذون السياسة الروسية التي تنتهجها نحو بعض الممالك الإسلامية ، وجندوا أبناءهم في الجيوش الروسية الموجهة لغزو بلاد المسلمين » .

مولد الشيخ شامل :

في مطلع هذه الحوادث وفي هذا الجو المضطرب المتقلب ، ولد شامل سنة ١٢١٢ هـ (١٧٩٧ م) في قرية « كرا » من قرى منطقة « آوار » من بلاد الداغستان ، ونشأ بها كما ينشأ لداته ، وتعلم في مدارس المساجد المنتشرة في قرى الداغستان ودساكرها وأخذ بحظ لا بأس به من الدراسات الدينية والعربية ، وكانت الطريقة النقشبندية قد بدأت بالانتشار في تلك الجهات على يد السيد جمال الدين القموقي والشيخ محمد اليراغي ، فانتظم في سلك مريدي تلك الطريقة الصوفية ، فصار العالم الديني الصوفي في آن واحد .

ولما بلغ شامل الثلاثين من حياته سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ م) واستد ساعده . ظهر في قرية « كرا » العالم المجدد المصلح الشيخ الغازي محمد الكمراوي الذي هاله ماوصلت إليه حال البلاد والعباد من التأخر الديني ، والفساد الخلقي ، وقام يدعو الناس إلى الرجوع إلى دينهم ، والتمسك بآداب وأحكام الإسلام ، فكان « شامل » من أول التابعين له والداعين بدعوته ، ولازمه ملازمة الظل ، وأصبح أحد مريديه ، وأعوانه المقربين إليه .

واستمرت هذه الدعوة الاصلاحية اللينة السالمة تسير في طريقها السلوكة تلقى القبول والسمع تارة ، والرفض والاباء والسخرية والازدراء تارات .

وفي سنة ١٢٤٥هـ (١٨٢٩ م) قرر (الغازي محمد الكمراوي) على أنه لابد لكل دعوة إصلاحية جديدة من قوة تسندها ، وإلا فلا أمل في نجاحها ، ولذلك بدأ يجند بعض الذين استجابوا لدعوته ويخوف بهم المخالفين له والباغين عليه . وفي هذه المرحلة أيضاً نجد « شاملا » أحد قواد الفرق التي كان يبثها الغازي محمد ، ويبعثها إلى الجهات للاغارة والتأديب .

وكثرت مصادمات الغازي محمد الكمراوي مع العصاة والمخالفين الخارجين على أحكام الدين . ومع رجال الدولة المستعمرة ، فكان يحالفه الظفر والنصر في بعض الأوقات ، ويخونه الحظ في أحيان؛ ولكن « شاملا » في كل الحالات كان الرفيق اللازم ، والمريد المخلص لأستاذه وقائده . ولما حاصر الروسيون الغازي محمد الكمراوي وأصحابه في قرية « كرا » في يوم الاثنين الثالث من جمادى الآخرة سنة ١٢٤٨ هـ (٢٨ أكتوبر سنة ١٨٣٢ م) كان « شامل » مع الذين لازموه ، ودخلوا معه أحد المنازل في القرية وتحصنوا في داخله ، فلما اشتد الحصار ، وضيق الروسيون الخناق قام الغازي محمد ، وقذف بنفسه على الروسيين ، وقاتل حتى قتل أمام باب ذلك المنزل وسيفه في يده . ورأى « شامل » استشهاد قائده ، فقام في رفاقه خطيباً ، وقال ما مؤداه : « إذا كان الغازي محمد وقع شهيداً ، فلا ينبغي لنا أن نضيع وقتنا بالبكاء عليه ؛ ولعلنا نسير في الطريق التي سار فيها ونلحق به ... ... إن حور الجنة ينتظرن ذهابنا إليهن شهداء أبراراً . فبدلا من أن نموت كما يموت الجبناء في مكان مغلق مسدد نخرج ونقاتل حتى تأتينا الشهادة ، ونموت كراماً » . ثم شد يده على حسامه ، ورفع صوته بكلمة التوحيد — لا إله إلا الله — وقذف بنفسه إلى حيث الموت الشريف ، أو الحياة الكريمة ، وقاتل « شامل » فقتال المؤمن الموقن بما عند الله للمجاهدين من إحدى الحسنيين . وأصيب في أكثر من موضع واحد من جسمه ، ولكنه كان مؤمناً بالله وطالباً للشهادة في سبيله ، فلم تخر عزيمته ولا ضعف ولا وهن ، فظل يحارب ويقاوم ، وانجلت المعركة ، ونجا شامل بنفسه ، ولكنه ما كاد يبعد عن هذا الجحيم ، ويسير في شعب من تلك الشعاب بضع خطوات حتى خارت قواه ، وضعف جسمه ، فلم يستطع مواصلة السير ، وقضى ليلته على قمة جبل هناك ، تحت رحمة القادر ممرضاً لتقلبات الطبيعة القاسية في تلك الأصقاع .

كان الهواء قاسياً قارساً ، وكان « شامل » عاري الرأس ، مجروح الصدر ، ملطخاً بالدم جميع أجزاء جسمه ، ولكنه لم يك ليشتكي من هذه الحال التي صار إليها أو يتألم ، بل انه كان يشكر الله سبحانه ويحمده على لطفه في القضاء !! ...

وفي اليوم التالي أتته النجدة ، فجاء بعض أعوانه ، وأركبوه فرساً وساروا به الى حيث أهله وعياله وأسرته .

وبقي شامل طريح الفراش أسير الجراح ثلاثة أشهر كاملة ، لايبرح بيته ، ولا يستطيع الوقوف على قدميه .

(يتبع) برهان الدين الراغستاني